الفضاء الاجتماعي والذاكرة الجماعية: قراءة في التعالقات الممكنة والمحتملة

د.ليلى العرباوي
جامعة سكيكدة

Résumé:
Il est rare de voir de nos jours et même dans la tradition des sciences sociales et encore moins dans la tradition sociologique des études qui unissent dans leur champ d' investigations l'espace social et la mémoire collective ,donnant ainsi l'impression que l'entreprise est périlleuse sinon impossible.Bien que leur rencontre était ,et ce grâce aux travaux de Maurice Halbwachs ,plus que fertile ,puisqu'elle a ouvert le chemin à un champ inédit .Néanmoins , tradition oblige, les chercheurs se retranchent toujours dans les cloisonnements conventionnels de l'espace d'une part et la mémoire de l'autre ne sachant pas réellement tout ce qu'ils gagneront en acceptant de les travailler ensemble et d'explorer les liens viscéraux qui les rassemblent.
Mots cles:
Espace - espace social- mémoire - mémoire collective- cadre de la mémoire-Représentations sociales-Imaginaire-Souvenirs.

مقدمة:

من الوارد باستمرار، أن يدرس كل من الفضاء الاجتماعي والذاكرة الجماعية كمقولتين مفهميتين منفصلتين ،وبالتالي درج الدارسون على ذاك التقليد لعقود، كما ينطرحان في تعالق مع مفاهيم أخرى باتت بداهة أن ترد على هذا الشكل أو ذاك ،مثل الفضاء والهندسة العمرانية أو الذاكرة والتاريخ ،ولكن أن يجتمعا في مبحث واحد فهذا ما لم يحدث، اللهم مع المدشن الاول لهذا الاهمام العلمي، ألا وهو موريس هالبواكس، كما سيأتي معنا بحسب تقدمنا في الطرح.

الفضاء والفضاء الاجتماعي

الحقل المعرفي :

هناك قائمة من العلوم تهتم جميعها بالفضاء نذكر منها : الجغرافيا، الهندسة، الهندسة المعمارية، التاريخ، التهيئة العمرانية، علم الاجتماع، الإثنوغرافيا، الأنثروبولوجيا، الاقتصاد، علم النفس والديموغرافيا، كل من زاوية تساؤلاته وغاياته المعرفية والعملية و لكن في واقع الأمر كل العلوم ودون استثناء تهتم من قريب أو من بعيد بالفضاء لأنّ مواضيعها متموقعة داخل بيئة لها خصائصها المؤثرة على هذا الموضوع أو ذاك محل الدراسة.

وإذا كانت علوم داخل هذه القائمة علاقتها بالفضاء كموضوع تبدو طبيعية لأن قيامها بدونه يستحيل هناك بالمقابل علوم أخرى تحاول تملك الفضاء كموضوع منذ مدة وجيزة و بالتالي لا يخلو تعاطيها معه من الأصالة والجدة والطرافة الفكرية ولعلّ من بين حقول الاختصاص هذه المنظور الذي تطرحه الهندسة والتي تقوم بقراءة من زاوية سيميائية، إذ يطرح الفضاء بادئ ذي بدء كعلاقة الشخص مع الشكل. (Chenieux،1982،p.235)

ورغم كثرة الاهتمام بالفضاء من مختلف الآفاق العلمية ودخوله الآن اللغة العادية إلا أن إرساءه لم يكـــن بالســـهل ولا السريع ناهيك عن الانتباه المتأخر وهذا انجاز العلوم الاجتماعية لطابعه الاجتماعي. ولعل التاريخ الموالي للمصطلح يكشف خلفيات نشأته والتي تفسر سبب تأخير الاعتراف به كمعطى للاجتماعي.

ورد في موسوعة الانيفارساليس تعريف للفضاء بالمعنى المعماري أو الهندسي بحيث يورد ما نصه:« إن الجذر فضاء ينتمي اليوم إلى اللغة السائدة للعمران(فضاء حضري، فضاء عمومي، فضاء أخضر) والهندسة المعمارية (فضاء كلاسيكي، فضاء باروك، ساكن أو متحرك أو فضاء الاستقبال أو الراحة يعد هذا الاستعمال متأخرا لأنه لم ينتشر سوى بعـــد 1940 لمـــا عوضت(فنون الفضاء) عبارة " فنون الرسم" المكرسة من طرف المهندس الرسام الايطالي لعصر النهضة فاساري(Vasari)

« وفي الهندسة المعمارية قامت "الحركة الحديثة " منذ سنوات 1920 بإدخال منظم لمفهوم الفضاء، ولكن هذا المفهوم بلوره قبل ذلك مؤرخو الفن الناطقون بالألمانية والمتأثرون بالفلسفة النقدية لكانط (E Kant .) وجمالية هيغل (G.W .F.Hegel) والذين استوعبوا الأعمال الأولى لعلم نفس الشكل (E, von Ehrenfels 1890).

إنّ التفكير المعماري حول الفضاء واصل في الأخذ من منابع تاريخ الفن وعلم النفس بالاستعانة بأبحاث الابستومولوجيا والفينومينولوجيا.

وفي نفس الموضوع تذكر الموسوعة أن المعجم العالمي(De Furetière) لسنة 1960 يحدد الفضاء بأنه « امتداد غير متناه للمكان تملؤه القدرة الإلهية»(Encyclopaedia universalis , 2002, p .600) مما نستشف منه سيطرة المعنى المادي من جهة والبعد الروحي الذي اخذ في الضمور بعيد ماي 1968.

إذ هناك تجاهل للبعد المعماري للفضاء في كتابات ذلك الزمن ورغم مضي أربع سنوات فإنّ معجم الأكاديمية الفرنسية يواصل تجاهله لكل تضمين معماري للفظ الفضاء، والسبب مرده حسب (G.Matoré) إلى كون الفضاء في التفكير الكلاسيكي يختزل العالم في الفضاء المرئي بالعقل أكثر منه المرئي بالنظر أو المحلل وليس الملاحظ.

وإنْ كان لابد من الاحتفاظ بملاحظة في هذا الوقت بالذات فبتلك المتعلقة بكون الفضاء لم يتخلص بعد من بعده المادي أو لنقل باختصار أنه اقتصر عليه و لم يفتح تخومه بعد إلى مكونات جديدة تعطيه المحتوى الذي صار متعارفا عليه فيما بعد والذي يقترب أكثر من الوجهة التي نود تزويده بها، هذا لا يعني على الإطلاق تجريد الفضاء من بعده المادي لأنه العنصر الذي يشكل قوامه أو لنقل يعطيه قواما وإنما البعد المادي وارد وموجود وهو الذي يؤكد عليه أحد أبرز منظري الفضاء(Lefebvre.)و الذي يفرق بين الفضاء الطبيعي / الطبيعة و الفضاء كمنتج

(espace'l produit) ويتمثل في الحيز المكاني والأشكال التي يعطيها له الفرد عن طريق البناء مثلا وبين الفضاء، وأخيرا الفضاء الاجتماعي والذي لا يكون الطبيعة ولا المناخ ولا الموقع ولا التاريخ القبلي ولا حتى الثقافة دور في شرحه وتفسيره ولا يمكن أن يخضع للتفسير السببي لأنه تتدخل في الأمر عوامل أخرى تؤدي دور الوسائط ممثلة في الجماعات الفاعلة والأسباب المعرفية و الإيديولوجية والتمثلات وعليه فإن فضاء من هذا القبيل يضم الأشياء دون أن يكون محصلتها فمن الأكيد أنه يضم أشياء ولكنها متنوعة من طبيعية واجتماعية وشبكات تبادل، وعليه فالفضاء في هذا المستوى من التعريف هو بالضرورة علاقة أو علاقات اجتماعية. (Lefebvre ،1986 p. 49)

وبوصفه علاقة اجتماعية فهو يرتبط بمسألتين لا تقل إحداهما أهمية عن الأخرى هما:

علاقات الملكية و المتعلقة بالأساس بملكية الأرض.

قوى الإنتاج أي تلك الأطراف التي تعطي للأرض شكلها، من طبيعة وعمل وتقنية ومعرفة (Lefebvre, 1986,p. 103)، نخلص إذن إلى نتيجة جوهرية مفادها أنّ للفضاء الاجتماعي وجهيْن:

شكلي : (formel)

مادي : (matériel) ((Lefebvre, 1986, p102)

ومذ ذاك يصبح من الطبيعي قبول فكرة أنّ الفضاء يتعدد بتعدد أوجهه الشكلية و المادية لذا يحدث Lefebvre.H) (عن تعددية الفضاءات الاجتماعية (Lefebvre,1986 ،p.103) وربما كان أحد الأسباب الكامنة خلف هذه الهيئة هو لجوء المجتمع إلى تجزئة الفضاء مما أدى إلى تجزئة الفضاء ذاته من فضاءات للسكن إلى العمل إلى الترفيه والرياضة والسياحة الخ... (Lefebvre,1986 ،p.109)

لذا لاغرو من أننا نجد دراسات لهذه الفضاءات كل على حده دون أن يغني ذلك بالطبع عن رؤية شمولية لكل الفضاءات على أساس أن الفضاءات ليست في معزل عن بعضها البعض من جهة ولتجنب قصر النظر الفكري الذي قد نقع فيه بسبب الحس العام أو استسهالا للمسألة الأمر الذي نبه ضده لو فيفر(.Lefebvre) (محملا هذا التقسيم مسؤولية تشتت النظر الذي يوضع مرة على الأشياء في الفضاء وأخرى على الفضاء دون أشياْء مما يعرض معرفة الفضاء إلى الضياع أو التيه بتضييع الشامل وتكريس الجزئي وتصبح القضية جمع شظايا.

وبما أن الفضاء هو أوّلا وقبل كل شيء كل فهو يجمع كل شيء كالكائنات الحية والأشياء والأعمال الدلائل والرموز أما الفضاء / الطبيعية فهو يجاور تلك الأشياء ويفرقها.(Lefebvre،1986، p.121)

إن قوة الجمع أو التجمع الكامنة في الفضاء الاجتماعي راجعة إلى من يقف وراء هذا الفضاء ألا وهو الكائن الاجتماعي لأنه علينا ألا نغفل حقيقة كبرى تتمثل في أن الفضاء الاجتماعي هو إنجاز هذا الكائن) (Lefebvre,1986 ،p. 121) هو مشروعه الذي يبين فيه ومن خلاله المعاني

و الدلالات ويفرض منطقا مقابل لامنطق الأشياء التي تبقى لوحدها عمياء ويفرض النظام مقابل لا نظام عالم الأشياء التي تبقى لوحدها فوضوية. إن آثاره هذه تدل على واقعية إذ أننا أمام واقع و إن لم يكن مرئيا فهو قابل للملاحظة لا يشكل مجرد إطار بل يشكل مورفولوجيا اجتماعية حقيقية تحتوي المعيش (Le vécu) لذا يقدم لنا لوفيفر استعارة عضوية ذاكرا أن الفضاء للمعيش بمثابة الشكل للتعضي الحي(Lefebvre,1986 ،p .112) (فهو مرتبط بالوظائف لا مجرد إطار وبناء على ما تقدم لا مجال لتصور الفضاء دون الكائن الاجتماعي لأنه في هذه الحالة يستحيل الحديث إلا عن الفضاء الحيادي أو الموضوعي والذي هو، في واقع الحال، جملة من الأوهام التي تحذف (المستعمل) .(Lefebvre ,1986,p. 133)

وفي نفس المعنى يكتب باشلارد (Bachelard.G) أن وظيفة أن تسكن هو الربط بين الممتلئ و الفارغ «La fonction d’habiter fait le joint entre Le plein et le vide» (Bachelard, 1981, p .133)

واستجابة لدواعي بيداغوجية، ينكب شونيو هو الآخرعلى تقسيم الفضاء وإضفاء المعاني عليه بحيث يقسمه إلى:

أ- فضاء حسي (sensoriel) ويضم :

ب- - فضاء مرئي.

ج- - فضاء مسموع.

د- فضاء ملموس.

ه- فضاء ذوقي .

وبالتالي يظهر على أنه حقل المثيرات القادر على إثارة حواسنا، وهو يتغير بتغير الفرد سواء أكان خفاشا أو قطا أو كلبا أو نحلا، أو أعمى أو أطرشَ مثلا ،الخ ....

-فضاء مدرك (perceptif) : ويشكل حقل مدركات الفرد في مكان وزمن معينين لأن الفرد ببساطة لا يدمج في دائرة إدراكاته كل مثيرات الفضاء الحسي للاعتبارات التالية :

الإدراك مبني على التجربة السابقة.

الإدراك يتغير وفق تغير الثقافة.

الإدراك مرتبط بالانتباه.

فضاء رمزي : يضم الدلالات والإيحاءات والرنات.

– فضاء بلاغي : (Rhétorique)يضم الخطابات والخطابات الموضحة للفضاءات السابقة ولحقل التمثلات التقنية الموضوعة عن ذلك الحقل.

و– فضاء التنشئة : و المتصلة ب :

الاستعدادات الممنوحة

نماذج الجتمعة

علاقات القوة

العوامل الشخصية

الفضاءات الأخرى

فضاء التثمين (Valorisation).

ويضم جميع الأحكام و الاستثمارات العاطفية و المشاريع الفردية و الجماعية، وظيفة التمثل و التنظيم وجتمعة الفضاء و التفاعلات بين هذه الهيكلات المختلفة (Structurations) . (Chenieux ,1982,p. 237)

ومن هذا المنظور تأسس الطابع الاجتماعي للفضاء وبات حينئذ يوسم بالفضاء الاجتماعي، لهذا فإن الفضاء يحتاج إلى تحليل سوسيولوجي لأنه عنصر مستقل ذو آثار خاصة به، و يحمل آثار أسلوب الحياة الذي يعيشه الأفراد بمثابة كتابة و تسجيل وتدوين في الفضاء Remy etVoyé,1974

أضفْ إلى ذلك أن الإنسان لا يكتفي بالإيواء إلى فضاء بل يصبغ عليه معنى لذلك فإن الهندسة والفضاء يستجيبان أكثر من غيرهما للشبكات الرمزية فهما تعبيران ل/ عن المخيال الاجتماعي والدليل على ذلك أن الزائر أو المتجول يستجيب للفضاء أو للهندسة عن طريق أحاسيس قد تكون معبرة عن الانزعاج أو الخوف، وكأن هناك لعبة تبادل بين مقاصد المصممين ومشاعر المتجول فهذا « مخيال السلطة استولى على الفضاء و قام بتنظيمه و التعبير عنه رمزيا لإثبات وجوده و تحكمه في الوسط» .(Bonetti,1994, p.22-25)

فلا غرو إذن أن نجد في السجل اللغوي للعمران ما يصطلح على تسميته بسياسة المدينة أو المدن، وأحسن مثال عن ذلك برجوازية فلورنسا التي سيطرت و كرست سيطرتها على الريف من خلال دورها الفخمة و تنظيمها للفضاء المديني مخضعة إياه لقوانينها في مجال الفضاء (codes spatiaux)

ولكن ليست السيطرة فقط على الفضاء ما يشكل مصدر سلطة و لكن التحكم في المخيال الفضائي (أو المتعلق بالفضاء و التلاعب به sa manipulation) (إدارته) تشكل هي الأخرى وسيلة لتقوية تلك السلطة لهذا السبب) تكالب الحلفاء على تدمير المدن الألمانية رغم انتصارهم المضمون) (onetti,1994,p.25-26 وكذا أحداث 11 سبتمبر ضد ناطحتي السحاب بنيويورك (les tours jumelles) كرسالة قوية ومفعمة بالرمزية ألا وهي تركيع الولايات المتحدة لأن تدمير الرموز هو بالأساس فعل رمزي.

و حضور الفضاء في المخيال هو أقوى دليل على ارتباط الفضاء بالمعاني و الدلالات لأن بنيته العميقة تربط الواقعي بالخيال أو اللاواقعي كما يقول باشلارد (Bachelard).(Bailly, p.13)

فالفرد يقيم علاقة مع الفضاء ويصبح المكان ذا دلالة نتيجة هذه الارتباطات (مكان المولد كمثل) فالتجربة الفضائية لها انعكاسات على ردود أفعال الأفراد و الجماعات كنشوء الإقليم(territorialité) والإقليمية فهي تعبير جغرافي عن الدوافع الاجتماعية والعرقية والاقتصادية والثقافية والسياسية ذات السمات التي تطبع وتنطبع في الفضاء... خذ المدن القديمة مثالا،

فهي مكان رمزي و مقدس يحمل شكلها دلالات كشكل الطرق والمعابد والهندسة، فكلها رموز.(Bailly, p .14-19)
وتحت طائلة اكتشاف الفضاء اجتماعيا ورمزيا تكاثرت منظورات معالجته مضطرة الهندسة نفسها والهندسة العمرانية خصيصا على تبني الطرح الجديد اعترافا بخصوبته.

المنظورات المختلفة لدراسة الفضاء :

لقد تعاطت مع الفضاء الاجتماعي مجموعة متنوعة من المنظورات النظرية تنطلق من القراءة السيميولوجية، مرورا بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ والهندسة والجغرافيا أي وفي تعبير مغاير تناوله من زاوايا عديدة تنم عن طبيعته المعقدة هي :

أ- المنظور السيميائي .

ب- المنظور السوسيولوجي_الإثنولوجي.

ج- المنظور التاريخي.

د- المنظور العمراني الهندسي.

ه - المنظور الجغرافي.

و حسب لوفيفر يدرس الفضاء الاجتماعي وفق تحاليل ثلاثة يجملها في:

أ- شكلاني.

ب- بنيوي.

ج- دراسة الوظيفة . (Lefebvre،1986، p.172)

لكنها كلها مترابطة.

إن العلاقة مع الفضاء علاقة حتمية لأنها حيوية فكل المجتمعات لها وتقيم علاقة مع الامتداد المكاني لأنها تقيم في فضاء يخصصها و تخصصه بحيث يعد ضمانا لهويتها.

(Lévy, Segaud ، 1983 ،p.28-29).

(لنتذكر ما أبداه هالبواكس في هذه النقطة بالذات)

إننا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نفصل الفضاء عن ممارسات الجماعة الروتينية أو الاستثنائية و لا أحداثها العادية أو المتميزة هذه الممارسات والأحداث التي تنغرس في الفضاء بامتياز كما تبقى الرايات مغروسة في الأراضي المفتوحة وحتى على سطح القمر فالقرآن خلد محمدا و الأماكن التي جرت فيها الأحداث التي كان طرفا فيها في آن واحد، وبالتالي غدت دلالة يتوارثها الأتباع عبر الزمن و الفضاء / المكان . (Goody،1994 ،p.143))

فهذا النوع من الفضاء المرتبط لزاما مع الهوية والذاكرة الجماعية يلعب دور "العالم المنظم" بالنسبة للمجموعة التي تسكنه والتي تفقد معالمه، ومعها معالم هويتها فيما إذا غادرته، لذا من الصعب بمكان أن نفصل في أذهاننا صورة الفضاء والمتخيل عن الخطى التي سقناها فيه، أوعن بعض الممارسات التي لا تصلح إلا بين جنبات ذلك الفضاء، فينجر الذهن هنا إلى الممارسات الدينية والطقوسية تحديدا (الحج، حائط المبكى، الخ ...) وهكذا يتزحزح الفضاء، فهو بمجرد ما يرتبط بممارسات ثقافية أساسا يصبح شيئا فشيئا رمزها الأوحد.

(Massenzio،1999،p.146)إنّ الفضاء الاجتماعي فضاء معيش تتموضع فيه حياة الشخص في شكل طبقات يتداخل فيها الشخصي جدا مع الاقتصادي و الاجتماعي. (Frémont)، 1976، p.(23

و انطلاقا من هذه الفكرة تأخذ العلاقات الاجتماعية تعبيرات فضائية، أو بعبارة خرى تتوزع في حشـــايا التقســـيمات والتوزيعات الفضائية، لهذا السبب إذا أردنا الإمساك ببنيات الفضاء ما علينا إلا الإمساك بمجموع العلاقات الاجتماعيـــة داخل المجتمع .

و من هذا المنظور يصبح تحصيل حاصل اعتبار الفضاء الاجتماعي متروع الحياد، لأنّ العلاقات الاجتماعية التي تؤثثه هي الأخرى ليست بالحيادية (Frémont, 1976, p.29-30) بحيث أنها مبنية على التراتب والمصالح، وتتضح هذه الفكرة بقلـــم هنري لوفيفر (Lefebvre) عندما يذهب إلى أنّ الفضاء يساهم في اغتراب الإنسان في المجتمع الرأسمالي الذي وبواسطة العائلة والمدرسة والوسط الاجتماعي يشكل صورة مشروطة ومبرمجة للفضاء لدى الطفل ثم المراهق والراشد (Frémont, 1976, p. 36-37).

و يقسم الفضاء في هذا المؤلف إلى ثلاثة أقسام :

المخيم والإقليم (يختص بالترحال أين تكون المجموعة متناسقة وفضاؤها مشتتا) (Frémont, 1976 p.120-124)

القرية وحدودها (le finage) (p.125-128، 1976،Frémont) (مثل السكان الأمازيغ في بلاد القبائل) .

السكن والفضاء الوظيفي . (Frémont, 1976,p.128-130)

و لعل أهم سمة يحتفظ بها المؤلف كون الفضاءات الاجتماعية لا تتجاور، لكنها تتبادل التأثير والتأثر، و يسوق لإجلاء ذلك مثال الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية بحيث لم تصمد الحدود أمام سيرورة التثاقف، فالحدود والتثاقف لا يقصي أحدهما الآخر بل يتضافران لتحويل الفضاءات العصرية. (p.131-137، 1976،Frémont)

وفي خضم ذلك تتعلق إشكالية الفضاء بمفهوم آخر مؤسس في المنظومة الفكرية البورديوية ألا وهو الملكـــة (habitus) كمجموعة استعدادات تشتغل كبنى ذهنية منظمة (Bourdieu ،1982 p.29-34)

نتاج التلقين والخضوع لنفس الاشتراطات (Bourdieu,1972,p.282) ، وتجد في الجسد أعلى تجلياتها باعتبارها طريقة دائمة للسلوك والكلام والإحساس والتفكير. (Bourdieu ,1980 ,p.117) والآلية التي تقف وراء تنوع أساليب الحياة . (Bourdieu,1980,p.189) من جهة ، ومن جهة ثانية تؤدي إلى التكيف والتطابق مع العالم. (Bourdieu,1980, p136) ومهما يكن من أمر فإن هذا التناسق الاجتماعي يستجيب لطبيعة الفضاء كما صوره بورديو (Bourdieu)بمعنى كونـــه مجموعة مواقع متمايزة ومتواجدة معا ومترابطة ببعضها البعض من خلال تجاورها وتقاربها أو تباعدها وكذا تراتبها،وهو وصف لبنية الفضاء الاجتماعي التي تخضع لمنطق الرأسمالي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية (Bourdieu ,1994,p.20) مما يجلي تجسيد الفضاء للبعد العلائقي للعالم الاجتماعي (Bourdieu, 1994, p .53)

رغم أن هذا الفضاء غير مرئي فإنه مزود بقوة تنظيم لممارسات وتمثلات الأعوان الاجتماعيين، (Bourdieu,1994,p.25) مما يجعل منه مفهوما أقرب ما يكون للنموذج المثالي لفيبر، وتأثير هذا الأخير على بورديو حقيقة غير قابلة للنكران، تدل عليها مؤشرات الممارسة العلمية لدى بورديو سواء في اهتماماته الموضوعاتية بالثقافة – على سبيل المثال – وإدماجه للبعد الثقافي (الرمزي تحديدا) في شبكة قراءته المجتمعية أو الممارسة المنهجية بلجوئه للمنسق الفهمي وما يجر من مستلزمات وخيارات كالموضعة التي تترنح بين الذاتية والموضوعية أو مطارحاته الأخيرة والتي تنتصر صراحة للمناهج الكيفية (بؤس العالم نموذجا).

الذاكرة الجماعية والفضاء :

خصّص هالبواكس الفصل الخامس من كتابه الذاكرة الجماعية لهذه الأخيرة في علاقتها مع الفضاء إذ يفتتح هذا الفصـــل

بالاستشهاد بكونت الذي يرجع التوازن العقلي إلى كون الأشياء والتي نحن في علاقة يومية معها لا تتغير أو تتغير قليلا، الشيء الذي يمنح لنا صورة إستمرارية وإستقرار (Halbwachs،1968,p193).

وإن كان لا بد من استخلاص مغزى هنا فهو ذلك المتعلق بكون الصورة المعتادة للعالم الخارجي لا تنفصل عن أنانا (Halbwachs, 1968)، وبالفعل إننا عندما نخلد للنوم في غرفة نومنا فإننا نقبل على ذلك وسط الأشياء التي اعتدناها، وعندما نفتح أعيننا عند الاستيقاظ أول شيء نقوم به هو التأكد من أن تلك الأشياء لم تبرح مكانها، وكأنها الضمان المادي على السير العادي والحسن لتلك اللحظة من حياتنا على الأقل، لذلك ليس من المستغرب أبدا أنّ أول سؤال يطرحه شخص ما نام طويلا أو استيقظ من غيبوبته هو أين أنا؟ و كأن المكان / الفضاء وتحديد التعرف عليه هو امتداد للطابع الطبيعي للأنا أي للهوية، لذلك فالمرض أو الموت هو أولا وقبل كل شيء اختلال العلاقة مع المكان وفقدان السيطرة عليه، والمظهر الآخر للعلاقة مع الهوية هو أن محيطنا المادي كما يسميه هالبواكس يحمل بصمتنا أو علامتنا ولكن علامة الآخرين أيضا. (Halbwachs،1968,p.194)

ثم إن الفضاء مثل النص الباطني لا يمكن أن تفهم دلائله إلا جماعته، ثم إنّ كل مظهر أو كل تفصيل من ذات المكان يحمل معنى غير مفهوم أو قابل للفهم، بحيث يستعصي على الكل اللهم إلا على أعضاء الجماعة على اعتبار أن كل أجزاء الفضاء التي شغلته أو تشغله يطابق مظاهر متباينة وكثيرة من بنية حياتهم أو للنواحي الأكثر استقرارا فيها.

وتبلغ العلاقة مع المكان ذروتها حينما توشك على الانكسار (Halbwachs,1968,p.196) لذا فلا غرو أن يقاوم الأفراد مشاريع هدم البنايات أوالأحياء، لأن في ذلك تهديداً لاستقرار أناهم فيصبحون حساسين بشكل أشدّ نحو اختفاء عمارة أو منزل من الأحداث الوطنية أوالدينية أو السياسية الأكثر خطورة، وهذا ما يلمس لدى عائلات أرستقراطية أدلت بصعوبة ترك المكان الذي كانت تقيم فيه.

(Halbwachs,1968, p197–201) والسبب الكامن وراء هكذا موقف أو ردة فعل هو أنّ المكان/الفضاء في معناه المادي مأهول بالذكريات التي تؤثثه وتعطيه معنى يتجاوز خاصيته المادية، وهوعامل من عوامل استمرار تلك الذكريات فإذا كانت الذكريات يحتفظ بها في تفكير الجماعة فلأن هذه الأخيرة تبقى في الأرض التي تدوم صورتها خارج الجماعة، وتستطيع في أية لحظة إعادة الإمساك بها. وعلاوة على هذا الدور المثبت أو دور المثبت الذي يلعبه الفضاء فإنه إلى جانب ذلك، يشتغل كإطار يحتضن الذاكرة الجماعية التي لا يمكن البتة أن تتشكل أو تتواجد خارجه .

(Halbwachs,1968 ,p.205-209)

وعكس طبيعة الذكريات التي تسجل نفسها خارج الزمن، فإنّ الفضاء ينخرط في الزمن بامتياز، فالذكريات بحاجة ماسّة للإفلات من قبضة الزمن حتى تتصور الذاكرة الجماعية نفسها أنها ثابتة، فأمّا الفضاء الذي هو ذو طبيعة ثابتة بالأساس لا يضيره الانخراط في الزمن المتغير بالأساس بما أن المجتمع يبني عليه شعوره بالهوية معتمدا على حضوره، بل وأبعد من ذلك تدين الجماعة باستمرارها وبذكرياتها للفضاء الذي تتخذه متكأ لها فبهذا الشكل (الصورة) المستقر تربط ذكرياتها. (35 2 (Halbwachs,1968, p.

و للاعتبارات سابقة الذكر وضح باشلارد (Bachelard.G) عبر اللعب بالكلمات وعليها أنّ كلا من « ذكرياتنا ونسياننا ولا شعورنا يأوون إلى روحنا المأوى المنزل وعندما تتذكر " المنازل" و " الغرف" فإننا نتعلم كيف نبقى في أنفسن».

أو بعبارة أخرى« ليست ذكرياتنا فقط ولكن نسياننا أيضا"مسكن" لا شعورنا "مسكن"روحنا سكن. وبتذكرنا

"المساكن" والغرف، نتعلم البقاء " ساكنين" في أنفسنا ». (Bachelard,1981)

إن الفضاء يضفي إذن هذا " البقاء في أنفسنا " والذي يستحيل في حالة النوم والجنون وأخيرا الموت.

إنّ علاقة الحاوي والمحتوى التي تربط بين الذكريات والفضاء هي الشرط الحتمي للمسك بإحداثيتي الوجـــود الإنســـاني وشروط إمكانه ألا وهما الزمان والمكان.

فالذكريات تتشظى مع الزمن وتغدو باهتة ويقوم الفضاء بإعادة إحيائها والعودة بها من بعيد، من غياهب النسيان، ومن غياهب التلاشي وهذا ربما ما يعكسه وقوف الشاعر العربي على الأطلال بنظمه:

« قفا نبك على ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى فالدخول فحومل»

وقد يكون هذا الفضاء ممثلا في شجرة أو ربوة أو منزل ... إنها معالم ترسم خطاطة خريطة الذاكرة، فالمنزل المتذكر هو كوسمولوجيا صغيرة يقوم المخيال من خلالها بإعادة كلية لجغرافيته المفجرة. (Bahloul،1992 ،p.45)

إنّ المعنى ذاته عبّر عنه هالبواكس حين أتى بفكرة طريفة يخلص إليها ويضمنها دعوة هي ضرورة إقامة جغرافيا للذاكرة وهي كما يقول للبناء.

خاتمة:

هكذا نخلص الى أن مباحث الفضاء والذاكرة من الموضوعات التي تخلط الحدود التقليدية والمألوفة للعلوم بطرحها غـــير المعهود وتستدعي أكثر من حيلة للولوج الى أغوارها السحيقة موفرة فرصة للعلوم الانسانية والاجتماعيـــة وعلـــى رأس القائمة علم الاجتماع طبعا ،لمضاعفة القراءات والنهل من تعدد المنابع التخصصاتية ومراكمة الجهد ومقاطعة وجهـــات النظر تحسير علاقة تبقى الى حد الآن مسفهة ألا وهي انفتاح حدود المعرفة العلمية على المعرفة الاجتماعية بما يتناســـب وبروتوكولات الاجراء العلمي حتى لايقع العلم في المحظور ولكن بالمقابل أيضا لايفوت على نفسه فرصة التقاط ما لم يكن ينظر اليه أصلا بحجة أنه حس مشترك رغم انه مايكون قماشة الواقع الاجتماعي.

Bibliographie:

- Bonetti , Michel (1994) Habiter le bricolage imaginaire de l’espace, coll. Re-connaissance, Hommes et perspectives, Marseille Declée de Brouwer, Paris.
- Bourdieu (1972), Esquisse d’une théorie de la pratique ,précédée de trois études d’ethnologie kabyle, Librairie Droz, Genève, Paris.
- (1980) Le Sens pratique, Minuit, Paris.
- Bourdieu, Pierre (1994) Raisons pratiques , sur la théorie de l’action, éd du Seuil, coll. « Points essais », Paris.
- Bailly S , Antoine, La perception de l’espace urbain, les concepts, les méthodes d’étude, leur utilisation dans la recherche urbanistique, centre de recherche d’urbanisme, 8°KD 125 SAP, SEP.
- Chenieux , Jacques(1982), Contribution à la réflexion sur le concept d’espace sémiotique de l’architecture in Espace et représentations, colloque à Albi du 20-4 Juillet 1981, les éditions de la Villette.
- Encyclopaedia Universalis ,2002 ،corpus 8, Paris .
- Frémont ,Armand (1976), La région espace vécue, Puf, coll. sup, France.
- Halbwachs ,Maurice (1968) La mémoire collective, nouvelle édition critique, Paris, Albin Michel.
- Goody , Jack (1994), Entre l’oralité et l’écriture, traduit de l’Anglais par Denise Paulme, coll. ethnologie, Puf, Paris.
- Lefebvre , Henri (1986) La production de l’espace, 3ème édition, Anthropos, Paris.
- Lévy Françoise, Segaud Marion (1983), Anthroplogie de l’espace, centre Georges Pompidou, centre de création individuelle, Paris.
- Massenzio Marcello(1999),Sacré et identité ethnique, frontière et ordre du monde, trad. de l’italien par Federico Giardini et Valérie Giardini, EHESS ,Cahiers de l’homme ,ethnologie ,géographie, linguistique, nouvelle série xxxv, France.
- Remy Jean,Voyé Liliane(1974), L a ville et l’urbanisation, Modalités d’analyse sociologique, Duculot ,Belgique.